By omar al mograbie

رواية

في عدلون لي ذكرى

«الموت لايفني العظماء بل يخلدهم»

عمر طارق المغربي

كتوباتي
kotobati

في عدلون لي ذكرى

عمر طارق المغربي

رواية

الكتاب: في عدلون لي ذكرى
تأليف: عمر طارق المغربي
تدقيق: عمر طارق المغربي
النوعية: رو اية
الإصدار: 2024
تصميم وتنسيق: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com
www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن الناشر تبقى افكار المؤلف ومكتبة كتوباتي لا تتحمل مسؤليتها
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

♡ رسالة شكر وعرفان ♡

تنبية ...

كل الشخصيات والأحداث كذلك الأماكن الوارد ذكرها هي واقعية ...

شكراً لكل من مرّ صدفة على صفحات كتابي هذا، لكل من وجد بين حروفي صديقاً لة، لأمي الحبيبة التي تدعمني دائماً، لمرشدتني والتي وجهت قلمي بقصصها العابرة خالتي «أمال»، إلى جيران العمر من عشت بقربهم أروع اللحضات، شكراً من القلب ....

أهداء ...

إلى ذكريات الماضي المبعثرة ...

إلى البطلة المجهولة التي علمتني الحياة والتمرد ...

إلى جدتي الأبية، الحية تحت التراب ...

إلى والدتي الحبيبة، التي تدعمني دوماً ...

إلى أصدقاء الطفولة، وجيران المحبة الذين شاركوني قهوة الحياة ...

إلى بلدتي عدلون حيثُ تربيت وإلى بعورتة حيثُ أحيا ..

أرفعُ لكم جميل أحرفي ..

☜ موجهاً لكم سلامي ☞

سلامٌ لعدلون ،كل السلام، سلامٌ لأحجارها البكماء،التي حاربت، بصمودها العدوان، سلامٌ لأشجارها الغريبة، إلى وجودي الدفين فيها، الذي إمتزج مع غبارها المتناثر في كل الأرجاء، إلى سكون لياليها، وصبحياتها التي تضج بالحياة،للأمل الذي يغرزه فلاحيها في كانون،ويحصدوه في نيسان، سلامٌ يخترق حدود الزمان والمكان، ليصل إليك يا إبنة الجنوب الأبية، سلامٌ لعدلون كل السلام ...

♡ في عدلون لي ذكرى♡

قريتي، طفولتي، محياي ...

في أرضً بعيدةٍ كل البعد عن وجود الأنسان، بقريةٍ جنوبيةٍ في لبنان، قرى صغيرة تقع بالقرب من مدينة صور هنالك حطت رحالي، هنالك أمتزج وجودي مع غبار الأشجار المنتثرة هنا وهناك، في كل مكان في كل زمان، وضعت تلك القرى بصمتها الخاصة في وجودي الذي أحياة الآن، ما زالت ترافقني في أصغر تفاصيل حياتي ...

كم أحنُّ إلى أشجار الزيتون المعمرة، وإلى أشجار السنديان الصامد كذلك الرمان والتوت، إلى صبحيات الجارات عند كل صباح، إلى أؤلاك الأطفال الذين عشتُ معهم، وبقربهم نمت طموحاتي ...

كم أشتاق إلى تلك السهرات العابرة في شهر رمضان مع الأحباب، وفي رأس السنة عندما نلتفُ جميعاً حول شجرة الميلاد، وتلك

الحزينة، الفتاة الجميلة التي ظلت طفلة لو مهما تقدم بها العمر، تلك التي أكل الزمنُ صباها، وأرهقتها نيران صاج الحطب،الصامدة بوجه تجارب الحياة وصعابها، التي علمتني وكبرتني، وأعتطني سرُ البقاء، جدتي ...

عدلون، كباقي ضيع لبنان، فيها يمتزج وجود الأنسان مع عادات وتقاليد جاهلة يربى عليها، تخلق و يخلق معك نعيق الغربان، نعم، ذلك الصوت الذي يخيّم على«عدلون»، فهل مررتم يومًا من قرب أشجارها دون أن تسمعوها تنوح؟ أو هل مررتم بقبورها دون ان تسمعوها تشتكي لكم الحياة هناك؟

هنا بستان، هنالك كيان، هنا نهرُ«عدلون»، وهنالك يدفنُ طموح، كل شيء في هذة القرية مترابط وكأنكم خلقتم من طينها، ورغم كل تلك الشجون، يبقى الحب الذي يعشش بين صخرات بحرها، من أجمل ما يكون، كم أطوق الآن إلى الجلوس هناك،أراقب غروب الشمس مع من أحب، أن أنشد لها ترانيم

ذكرى تعيش معي إلى الآن، إذا مررتم بأرضها أبلغوها عني السلام، وأخبروها أني أهواها أكثر من كل شيء، ولكن طموحاتي اكبر من أن تحدة حدود الجهل والتخلف، الذي روى بمائة حقول التين والرمان ...

أخبروها، أنها السبب في موت جدتي، أخبروها أنها السبب في قتلي حلمي، أخبروها أنني لا أسامحها ..

ورغم كل شيء، رغم كل ما حدث، لا أدري لماذا أشتاق لها يوماً بعد يوم، وكيف لا؟، وبها عشتُ أجمل قصة حب...

بها ألفت وجودي ورسمت كياني الغريب، البعيد عن سكان تلك القرى، من صغري كنت متفرداً ومتميزاً، بفكري، الذي كان بنظر البعض أنفتاحً مبالغ به، وكنتُ أنظر أليه على أنه درب أسلكه لكي أنجو من بحر الهلاك الذي غرق به كل سكانها، كنت متمرداً بكل ما تحتويه الكلمه من معنى، وما زلت هكذا، ولكن الذي

أختلف اليوم هو أنني أجد وسيلة للتعبير بقلمي، بعيداً عن عن صوتي الذي كانت تكتمه أيدي العادات المتخلفه هناك، وجدتي تلك الغريبه الحالمة، التي أتت إلى عالم غريب عن عالمها، نعم، عدلون عالم آخر لم يصل إليه بشر بعد أو لم يتم أكتشافها

»جوهرة نادرة تختفي في أعماق البحار بمحارة ما«

تلك الحوريه الجميلة التي هربت من بحر مدينه النبطيه من حي(السراي) تحديداً مع معشوقها البشري إلى عدلون، من النبطيه قطف جدي أجمل زهرة بحقولها الملونه والجميله، جدتي تلك الأمرأه التي تنشر الربيع أينما تمضي، بأناملها الساحرة تخال أنها تحيي كل زهرة تلمسها تمامًا كما فعلت بحياتي ولكن

أو يدوم الربيع؟ ....

﴿وجدي﴾...

وماذا اخبركم عنه،

أأخبركم كيف أختبرت الحياة صبره؟

أم أخبركم كيف عذبته بسياط الطغيان؟

كلما حاول التمرد أو أقبل إلى ذلك، كانت الدنيا تقسو عليه يومًا بعد يوم، ولد بين أسره لا ترأف بحاله، بقرية عدلون ترعرع، بين المواشي، في الأنهار، على سفوح الهضاب الصامده ...

جدي كجنوب لبنان، قوي صامد لا ينهزم أمام العدوان، بقامته الفارهه بمثابه درع حصين ولحاه الطويلة، هكذا رأيته للمرة الأولى عندما ولدت، رجل لبناني أصيل متمسكًا بعاداته وتقاليده، أو هكذا كان يظهر، ولكن كنت أعلم إن جدي أعمق من هذا بكثير ...

كنت أراه متمردًا بكل تفاصيله، عندما كنت أذهب معه إلى ﴿الخروب﴾، ذلك المكان الذي رسم وجودي، والمكان المفضل للنزهه عند سكان القريه في الربيع والصيف، كنت أجد جدي يثور بمعوله على الصخر، كأنة يؤنبه، يعاقبه على ذنب لم يقترفه، ولأن أولئك المتخلفين حكموا أن الرجل لا يبكي، لم أرَ إلى

يومي هذا جدي ينزل قطرة من الدموع، مما أدى الى زيادة كسبان الجليد في قلبه، فأصبح غير قادر على التعبير ...

حقول عدلون وبساتينها، كانت دائما مليئة بالأشخاص، طفلاً يلهو هناك، وعجوزاً يجلس على صخره بثقتها عدلون في قعر الجحيم معاقبةً إياها على ذنب كبير فعلته، أشجار في كل مكان، تروي لكم غصونها حكايات منبعثه من ألسنة نساء أهل القريه،

وماذا أخبركم عن نساء عدلون؟

نساء أقوياء أنجبتهم التجارب،نساء بألف رجل ورجل إن أقدم أحدهم على مس معتقداتهم أو عاداتهم،يحاربون
بحكمهم،وينجبون مقاومون، كانوا يلتهون بنقل الأحاديث
والأراجيف، وكوب القهوة يرتحل من يد إلى يد إلى أن يثبت فوق شفاه أحدهم، وللأطفال مجلس بينهم أيضًا فكانوا يستمعون إلى الأحاديث بتمعن دون أن ينطق أيّ منهم كلمة، ويرسمون نظرات الغباء على وجوههم، يتظاهرون بأنهم لم يفقهوا ما تقوله النساء، ولكن كانوا أكثر خبثاً وذكاء من ذلك، كانت النساء حينها ترتدي

عباءات اللبنانيه الخاصه، ومنديلاً يلفوه الى الوراء أحيانًا ومرة تلفه النساء إلى الأمام، وكان نهر عدلون مكان تجمعهم، فهو المكان الوحيد الذي كان في الماضي مرجعهم للحصول على الماء، للأستحمام وللغسيل لذلك لم يجرؤوا أحداً من الرجال التقرب من ذلك النهر فكان النهر وكانه «منطقه محرمه» بالنسبه لرجال عدلون،هكذا كنت أسمع من فم كبار الضيعة،و ما زلت أتصورهم في مخيلتي الآن،كأني رسام يرسم لوحة زيتية عريقة،أرسمهم وهم يغسلون الملابس ويحتسون أكواب الشاي الدافئه في صبحيات كانون القارسة ...

ذلك النهر لم يكن كأي نهر!،بل هو قصةً تروى مع كل تسريب للماء فيه، كنت أجد ألف حكايه وحكايه ألفتها تلك النساء وكأن النهر أيضا كان يستمع إلى أحاديثهم بشغف...!

ولم أخفي عليكم لم تخلى القرى من شاب طائش حاول التجسس أو الأقتراب من هناك، كما كان يروي لي جدي عن قصه (حسان)، لا طالما أحببت أن يرويها لي في كل ليلة، عندما تنام

الشمس في مهد البحر الشاسع، ويرقص القمر في كبد السماء، عندما تختنق الأنوار وتخلى الشوارع من كل جار، ويشتعل فتيل الكاز في القنديل، حسان كم معتوه هذا الرجل؟!

وعلى الرغم من أني لم أعي ولم أكن على هذة الحكايات، كنت أستمعها من فم جدي المنبثق بشغف وإلى يومكم هذا يا ساده، ما زلت أسخر من هذا الرجل الساذج، كان حسان في سنة العشرون محباً لأحدى فتيات القرى، ولأنة لا ينتمي إلى عدلون، فأنة يوضع في سجل (الغريبون)، رفض والد الفتاة أن يزوجه إيها، لذلك أصرَّ على ملاحقتها دوماً، وفي يوماً من الأيام ظلّ يتتبعها إلى أن دخلت المنطقة المحرمة، ومن دون أن ينتبة أو يلتفت إلى المكان الذي يدخلة شاهدة أحدِ المارة، فقام بضربة، ولم تقف القصة هنا بل قام الجميع بضربة بساحة الضيعة ومن حينها أختفى حسان ولم يراة أحداً قطّ، بعد هذا الموقف، لم يكن ذنبة، بل هو ذنب عدلون، لا أدري لماذا

ألومها دومًا؟ ولكن أدرك أنها السبب في كل مشكلة حدثت لأحدهم...

الحب في عدلون كان مستحيلً، بل كان خطيئة عظيمة، كان النطق بهذة الكلمة، كالناطق بكلمة الكفر، لذلك أعتاد العشاق على دفن مشاعرهم، وأعتدنا الفتيات أن يحيونا من دون حب، والرجل تمرن على كبح أحاسيسة، لا أدري كيف لهم الجرأة أن يتسألوا كيف تحدث كل هذة الخلافات بين الأزواج؟ السبب هو لأنك يا عدلون وضعت قانون بعنوان لا للحب وأعتبارة على أنة خطيئة لا تغتفر، ومارستي طقوس الزواج التقليدي الذي لا يوجد منجى أو مرتجى منة، وكيف هذا الزواج؟ وكيف ينتجى زيواجاً غير مبتني على الحب؟ ورغم رضوخ جدي كل الرضوخ لهذة العادات قرر أن لا يركع أمام هذا القانون كما أخبرني، أخبرني بأنة تمرد وقد ظهرت في عينية علامات النصر جلية، وكأنة حقق أنتصاراً كبيراً في معركتة مع الحياة، فقد تزوج جدتي عن حب وحارب من أجل الحصول عليها، بنى منزلة بالحب، وأسقف

سطحة برمال الوفاء، وتزوج تلك التي أسرتة وجعلتة تائهاً في دنيا العاشقين، قرأت دائماً هذا التوهان في عيون جدي، في أنفعالاتة، عند رأيتة لجدتي، كان عنيد لا يعرف طرق التعبير عن مشاعرة...

وجدتي لم تعرف كيف تحدثة عن مشاعرها خوفاً من أن تقع بذنب الحب الذي فرضتة القرية...

أخبريني يا عدلون، لماذا الحب ذنبًا في قاموسك؟

ألم تعيشي لحظه حب؟ أو أنك كسرتي من شخص أحببتيه بكل صدق؟

عن نفسي ولدت هناك، نعم، لكن لم أتبع يوم قانون واحد في هذه القريه، لذلك عشت عمري كله بحب كان الربيع في حياتي دائمًا، وكانت أزهار العشق مزهرة دومًا في بساتين قلبي، وكانت أنهار الغرام تعزفُ لي دومًا سنفونية الحب المجهول، كان خريفي حب وصيفي حب وشتائي كذلك، كان البرق بالنسبة لي بمثابه غزل، والرعد بمثابة حضن دافئ من شخص ما أحببته.

أخبريني يا عدلون هل تغيرتي؟ أم مازلت كما أنت

» غريبه«

»سجينه«

»منعزله«،

من أين لك كل تلك الدموع؟

كيف ألئم لك جرحاً ألفته سنين الضياع؟

لن ألومك بعد الآن لأن فيك، ألفت أجمل سنين العمر، أروع الذكريات، نسجتيها لي عدلون بمغزل الحب، نعم، أحبتني عدلون لأنها وجدت بي شيئًا لكي أنقذها من آلامها ولكن خاب أملها عندما أبغضتها في الماضي،و ما زلت أفعل ..

ودار جدي، ذلك المنزل الذي كتبت بين سطور جدرانة أجمل الحكايات، ذكريات أتلمسها الآن أشعر بها، بيت قروي صغير

لكنة كبيراً بالمحبة، يقطن أمامة حقلاً صغير، زينة ورداً جميل ألوانها تضج بالحياة، فتتجلى بها صور الأمل عندما تتراقص مع نسمات الهواء، كنت أخال أن الربيع لا يرحل من دارنا يظل يرقص في زواية غرفة إلى الأبد، بين أشجار هذا الحقل تربيت، كبرت وأنا أأخذ من وردة سراً دون معرفة جدي لأعطيها لمعلمة اللغة العربية «غادة»، ولكن اليوم مات كل شيء، وحكايات هذا الحقل أنتهت عندما بنى خالي «حسن» منزلة الحالي...

_جدران بيت جدي، كانت تروي لكم قصص الدهر،أساطير القدماء، كم كنت أجلس هناك بمفردي، فأطلق العنان لخيالي والجدران يروي لي تلك الحكايات ...

عالمٌ آخر،خيالي ذلك الجريح في ساحات المعركة، فرداً مجهول في عوالم النسيان، نقطة أستفهام في دفاتر الحياة، هو فاصلة تفصل بين الواقع المرير والحلم الجميل، هنالك بنيت عوالم أخرى، لونتها بألواني الخاصة، ألفتها من كياني الشخصي، عوالم تعكس وجوهي في هذة الحياة تعكسُ لكم قصة إنسان تائة، خيالي

هو المكان الوحيد الذي وجدت به مكان للتعبير بحرية، كنت أرى وجودي كشجرة أرزاً قوية لا يؤثر بها بطش الزمان ولا معالم الطبيعة فرعها ثابت وبقوة بالأرض يتشبث بها لآخر نفس، تلك الشجرة الأبية التي ترفض الركوع للعدوان هي أنا ...

نحن باقون ببقاء أرزنا سنعود، حتماً سنعود يومًا!

بقلم كل كاتب، بصرخة كل ثائر، بصمود كل متمرد، ببندقية المقاومون الصامدون في جنوب لبنان سنعود ...

هكذا نحن اللبنانيون نزداد قوة كلما قست علينا الضروف، نحب الحياة ونعيشها، نستمتع بكل لحظة فيها، لأننا نؤمن أن الشتاء لو مهما طال سيرحل يومًا، وسيزهر ربيعنا حياة، وسيبث الأمل بالتراب، لتحي ورداً سقتها دمُ الشهداء، كل هذة الموضوعات حدثتني عنها الجدران، جدران دار جدي، وفي منتصف ذلك المنزل كانت تتربع هي، حورية من بحر الذكريات، درة ثمينة هاربة من محارة ما، ملكة قصر الأحاسيس،منتهى آيات الجمال، أنها جدتي «سلام ..»

أمرأة قوية بكل ما تحملة الكلمة من معنى، كانت وما تزال، مثلي الأعلى في كل شيء، أمراة ولدتها التجارب بأحدى أحياء النبطية من أم تحمل بين جنبيها كل معالم العطف والحنان، فروت بهما تلك الزهرة فأينعت دون أي شوكة غادرة، تربت وعاشت وهي ثائرة بكل وجودها، تعلمت بزمن منعت بة الفتاة من التعلم، قانون الجهلاء الذي نص على قتل حلم الفتاة وأعتبارها عار وغير فعالة بالمجتمع، كانت جدتي تهوى الكتابة والقرأة، وكأي أنثى في ذاك الوقت، حكمت عليها العادات والتقاليد بالزواح بعمراً مبكر، تزوجت جدتي «سلام» من جدي «قاسم ...«

ودار بهم الزمن إلى أن أوصلهم إلى أرض النيران، تلك الأرض اللعينة التي تسمى عدلون مهدمت الحب، جدتي سيدة قديرة، ترضى بما يرضي نفسها، بنت بيتها بالتعب والكد، كل حجراً وضعتة يحمل بين طياتة المئات والمئات من الشجون، أحدث بيوت القرية في الوقت ذاك، أول بيت أحتوى التلفاز والراديوا، والعديد من الأدوات الكهربائية المعروفة حينها، وكما قسم

الرحمن للجميع قسمة كان لجدتي الطيبة قسمتها من الأولاد، فرزقها الله ثلاث من الذكور وثلاث من الأناث، إن أردنا أن نفتح الآن دفتر التربية التي ربتها (سلام) لأولادها لن أنتهي هنا، يكفيكم أن أقول خيرُ أم أنجبت وربت، وخير مثل يحتذا به، وأزدادت ضربات الزمن المؤلمة، صفعة تليها صفعة، وأشتدت عواصف كانون القارصة والباردة وأخذت تعصف في جدتي، حتى جعلتها غير قادرة على الحراك، وأضحت جليسة الفراس، وأبتليت بالعديد من الأمراض، هكذا تكون نهاية الأبطال،نهاية أشجعُ إمرأة، سلام تلك الأمرأة القوية التي لم تأبة يومًا لظروف الزمن، ولم تركع أمام صفعاتة القوية، ظلت لآخر نفس متمسكة بخيوط الأمل، والحلم والتمرد،

الآن فقد عرفت لماذا أكرة العيش هناك ...!

لماذا كنت طامح للهروب!؟ للتحليق بجناحي الصغير إلى خلف شفق البحر الدامي، أن أبحث عن نفسي وسط ركام التكهنات

هذة، أن أكون فراشة ترقص حرة بالأرجاء، طليق لا يحدني فجر نيسان، ولا توقفني صرخات تشرين،

آهٍ يا دار جدتي، آهٍ يا دار الذكريات، فيك ألفت أجمل الحكايات، فيك عاشت أشجع أمرأة جاءت من غياهب الصعاب، روايات خانقة تتسكع في زوايك، فيك آهات الزمن الخؤون، كان أملي في العيش هناك، كقمراً ينير ظلمة وجودي في الليالي، كنجمً يسبح في فلك التجارب إلى أن رمتني هذة الحياة في غياهب الجب، أشرق فجر الثاني من أيلول في سنة الألفين وسبعة،عندما بلغت الساعة الرابعة عصراً، أبصرت عيناي هذة الحياة، رأيت النور بعد ظلمة رائعة دامت لتسع شهور، ولكن النور الذي رأيتة كان بمثابة ظلام مرعب وكأنة كان أشد ظلمة من التي عشتها، وهنا رأيتها هي، بمنديلها الأسود، وثوبها الأبيض، وعيونها الخضرويتين، وأنف كأنة حبة لوز سقطت من جنان الخالق، هي جدتي تلك الأمرأة التي ربتني وكبرتني، وسقت وجودي بماء التمرد، كانت أول

من علمني الطيارن في هذا العالم، وأول من مكنتني من العيش، علمتني أن الفرق بين المدرسة والحياة أن المدرسة تعطي الدرس من ثم تجري الأمتحان، بينما الحياة تجري لنا الأمتحان لتعلمنا الدرس .

أنا من هناك، أنا من كل إنسان، من كل فرداً يؤمن بحرية الفتاة، من كل شخص أخذ القلم سلاح والعلم دفاع، من كل واحد يؤمن بالأختلاف، لأن الأختلاف ثراء، الأختلاف تنميز، من دون الأختلاف لم يكن هنالك حياة، أنا من كل متمرد موجود، في كل متفرد، أنا الذكريات، أنا الماضي الجميل والحاضر الرائع والمستقبل الأروع، ولدت في قرى الزيتون وترعرعت في حقول التين والرمان، كبرت على المعول، ونضجت على صرير صاج الخبز المرهق، حقاً أنا قصة عنوانها الذكريات، نعم الذكريات، أسرابٌ من طيور الماضي تعشش داخلك، ترسم لنفسها كيانٌ خاص يرهقق، تصارعك في منامك، تحاربك في طموحاتك، تبقى جليسة الحاضر، وإبنة

الماضي، وعاشقة المستقبل، كنت أعتقد أن الذكريات تبقى فقط في الماضي،

مجرد لقطة حدثت في شريط حياتي ...

ولن تكرر ...

لكني كنت مخطأ جداً، فهي تأسرك، تبقى بقربك حتى الموت، وبعدما تموت تنبت على قبرك وردة سوداء تعاتب الأيام والقدر،

جدتي أين أنت الآن؟

كم أشتقت إلى جلساتنا الممتعة، إلى ضحكاتنا الجامحة، إلى تخيلاتنا التي لم تحدها الحدود، كم أود الرجوع إلى الماضي الآن، لكي أضمك أو أحدثك ولو لمرة واحدة وأخيرة...

أن أخبرك أين أنا الآن؟ وماذا فعل بي الزمان؟ وكيف شتتت الدنيا وجودي، جدتي وبعد السلام أقول،

كنت على حق عندما أخبرتني

»إنا آلات بشرية، نسير، لكن كل واحداً منا يسير بدرب هو يختارة، ولكن المهم أن يكون على دراية كافية بالطريق الذي يسلكة، لكي لا يتفاجئ بالصدمات ويتوقف عند أول صفعة» وها أنا ذا لم ألتفت إلى تلك النقطة حتى تعثرت بأول تجربة وقعت بها، كم أنا بحاجة إلى نصائحك، وإلى بسمتك المفعمة بالحياة، لم يبق لي يا جدتي شيء سوى فتات من الذكرة تعيش معي، ولكنني ها أنا أكمل الدرب الذي اسلكة، أكمل حلمك، شغفك وحبك للكتابة، أروي للجميع عن بطلة مجهولة تسكن في دفاتر الماضي، عن ملكة قوية حكمت مملكة الحب بكل وفاء،عن تلك التي علمتني أروع الدروس وكانت بمثابة أم، أنت التي ربت قلمي، وعلمتني الحروف وها هي تنموا، تمتد على أوارقي تثمر ثمراً طيب، وسأبقى، نعم، سأبقى صوت ذلك القلم الثائر، والإنسان المتمرد بوجة كل غاصب، بوجة كل العادات، وستبقين شعاراً للأمل وللتضحية إلى الأبد، ياقمة غطى أعاليها الثلج الأبيض، يا واداً بالخضار تزينا وبأريج البيلسان والعنبر مفعم، ستبقين يا جدتي حية بقلب كل

مغامراً ضيغم، وسيظل ذكراك مخلداًعلى مر السنين متجدد، نعم، الموت لا يفني العضماء بل يخلدهم تماماً مثلما فعل مع جدتي، كان الحب لا متناهي بدارنا، فكنت أراة بجمعات الجارات عند كل صباح، هنا «أم محمد» وهناك تجلس «أم حسن» وتشاركهم الحديث «أم علي» و«أم ربيع»، كنت أراة بفناجين القهوة التي تتنقل من فم إلى آخر،لقهوة جدتي مذاق خاص، فهي أقرب إلى سحراً يجمع الأحباب، كلٌ منهم أخذ مكانة على الردهة الخارجية للدار،صورة جديدة بمشاهد البال،حوار آخر في روايتي، وبات الحديث كأنة نهراً جاراً يندفق من ألسنة الأحباب، أحاديثهم، أذكرها الآن، أخالهم أمامي، على هذة الأوراق، يتبادلون أطراف الكلام، وتظل ركوة القهوة حائرة أي الفناجين تملأ، ها هي أم حسن تتربع بالزواية وهي تخبر جدتي عن أحوال ولدها، وها هي أم ربيع، هاوية الزهور، تلك التي تستطيع أن تزرع باليأس أمل، أن تضع في الميت عمر، أملٌ يحي الأيام، و«لأم علي» صاحبة الدكان الصغير، دكان الطفولة، ذلك المكان الذي خرج أطفال، نمت

أسنانهم على حلوى دكانها، لم يكن مجرد محل حلوى، بل كان مجمعًا للذكريات، فغالبية ذكرياتي أخالها هناك، أن قصدتم تلك الأماكن بالله عليكم قبلوا أصحابها أهل البركة، غازلوا بعيونكم الجدران المفتتة من بطش الزمن، أجلسوا وأستمعوا إلى أحاديثها لعلها تخبركم عن طفلاً حالمًا سكن أراضيها، آهٍ يا دكان الذكريات، كم ترى مضت فيك أيام؟ كم صديق قابلتة هناك؟ كم أملا بنيت بين أعمدتك القديمة؟، كان لها نصيبٌ أيضاً من القهوة، وها هو ذلك الشخص المجهول، صوتة يدوي الآن في مخيلتي،أذكرة عند كل صباح «جارنا علي» بائع الخبز،كان لخبزة مذاقً خاص ومختلف، كنت أألفة عند كل فجراً، بعربيتة البيضاء الآلية، بإبتسامتة التي تدفن تحتها الألاف والألاف من الأحزان، كان له نصيبٌ أيضاً، كذلك أخوتة، ولا أنس أحاديث العم «أحمد» فكل جمعه جمعتة بجدي، كل هؤلاء كانوا أبطال مجهولون بقصة حياتي، ولجارتنا «أم محمد» تلك التي تمكث بالجهة الخلفية لدارنا، نصيبٌ من الأحاديث وفناجين القهوة، لطالما كانت قهوة

جدتي مختلفة، لطالما كان مذاقها مختلف، أتسأل اليوم كم من عابراً في هذة الحياة شرب من هذة القهوة؟، كم من محب؟، من صديق داعب أنفة رائحة البن الذي تخاطب القلب قبل العقل؟، لم تكن مجرد شيء يقدم للضيوف، بل كانت أكثر من ذاك، كانت كعربون محبة، كوسام شكر، كخيوط سحرية تلتف حول القلب وتأثرة، بهذا جدتي تحيا، بأحاديثهم العابرة، بفناجين القهوة، تحيا بذكرياتهم، بمحبتهم لها، هكذا تخلدت،

كم أحن الآن إلى تلك الشخصيات؟ إلى ذكرياتي معهم؟ كيف مرّ كل هذا الوقت بسرع؟ كيف أنقضت كل تلك الذكريات؟ حقاً لا أدري ...

وعلى الرغم من أني كنت بينهم وعشت كل هذة الأحداث، إلى أني كنت وما زلت أشعر بأني شخصية ثانوية في هذة الرواية، ولكن ما أجمل أن أحي جيران العمر بقلم صامت فوق أوراق دفينة، ما أجمل أن أذكر أحداثي معهم وتلك المواقف الجميلة، التي رسمت وجودي اليوم ...

مرت السنين عام وراء عام، وكبرت وأنا ألعب هنا وهناك، ببيت جدتي، بالردهة المقابلة لمنزل خالتي «ورود»، كانت تلك الفسحة هي مجمع الأحباب، والأصحاب، كانت لا تخلوا بليالي الصيف، حتى بليالي الشتاء، فخالتي قامت بتسكيرها من كل الجوانب وتحويلها إلى صالة شتوية، ها هو عقلي يرسم لي صور الجلسات من جديد، يعيد إلى بالي تلك اللحظات فأرى العم «عصام» تربع في أحد جوانب الصالة، وأرى النراجل قد أعدت، وأشاهد خالي«أحمد» قد تسكع بنرجيلتة بزواية من الزواية، ولخالي «حسن» دور في هذة الجلسات مع زوجتة «فاطمة» عندما ينتهي من خدمتة العسكرية، كأني أسمع الآن صوت قرقرت الماء بزجاجات النراجل، وأنا أكتب، كلها صور تعيش بمخيلتي، أحاديثم التي تنتقل من فم أحدهم لتقع بأذن شخص آخر، ضحكات الأطفال، الأحباب، أولاد

الخلان«حسين»«حسن»«محمد وعلي» وقد زان دار خالتي فتاة سمتها «جنان»، جميعهم كان لهم دور كبير في نشأتي، كلهم

يتربعون الآن في غرف الذكرة، أما عن نفسي فقد كانت معهم لكن خيالي كان هناك، في عالم الخيال، يحلق للبعيد، كطائراً شريد، كجثة عادة للحياة، كسجيناً فك أسرة بعد سنوات، كان خيالي يقطن بعالم آخرى، عالم خلقتة لي ليالي تشرين، ألفت جدرانه حكايات نيسان وآذار، بنيت فية قصر الأحاسيس، زين جدران هذا القصر، صوراً من أشخاص عاشوا في مملكة حياتي، عابرين سبيل في قصة وجودي، فالجميع كان بالنسبة لي أشخاص ثانوية في رواية الكيان هذا، أما عن أصدقائي فكان بعضهم من مقاعد الدراسة، نعم تلك اللحظات التي كنا نتأفف منها، هي الأحب إلى قلبنا الآن، ساعات قضينها ونحن نلهو ولا نحسب للمستقبل أي حساب، لحظات نعود عليها الآن ونحن نستند على عصا العجز، نتفحصها بأناملنا المتجعدة، مدرستي عدلون كانت أول المدارس التي دخلتها، قابلت بها أجمل أصدقاء عمري، أفراد بادلتهم الأحاديث والضحكات كان من بينهم «أيمن» أول وأفضل الأصدقاء وفيهم «علي» والكثير الكثير من الأشخاص وفيهم كان

صديقي «نصر الله» هؤلاء هم من رسموا وجودي اليوم، أبطال مجهولون في حكاية عمري،أتسأل أين هم الآن؟ كيف تسير أيامهم؟ هل مازالو يذكروني يا ترى؟ ...

ومن الأصدقاء أولاد الخال«أحمد» وهم «دعاء وقاسم»فالأولة شاركتها مراحل الدراسة الإبتدائية ومتلكنا ذات الخيال والثاني تسابقت معه إلى المجهول، تمردنا على واقعنا المرير وسافرنا إلى عالمنا الجميل سوياً، تسلقنا شجرة التوت معن، تلك الشجرة التي يثور جدي غاضباً كل ما إقترب منها أحد، فكم أنتظرنا قيلولة جدي عند كل ظهرية، من أجل أن نلعب بقربها ونقطف ثمرها، ونتبادل جوانب الأحاديث، أما في رمضان فلم نترك أي دكان في الحارة دون زيارتها، فمن «أم علي» إلى «حنان» فالعمة«هنا» والعديد العديد من المحلات التي روينا بينها أجمل الروايات، لنجتمع بعد كل هذة الدوامة، على أدراج منزل الخال، ونحن نتبادل الضحكات، تلك التي باتت اليوم غذاء يومي أعود إليها الآن وأنا أنثر بعض الدموع فوق وجنتي، وأنا أتلمسها بكل هدوء،

وأشتياق «قاسم» ذلك الصديق القريب و«دعاء» تلك البطلة المجهولة في دفاتر الحياة، تلك التي أمتلكت نفس الطموح، بحيث تمردنا سوياً ونشرنا التمرد في كل الأرجاء، كنا في كل مكان، شاركنا الأمل لكل صديق، طهونا معاً طعام لا يؤكل، فكم من مرة كدنا بها أن نحرق المنزل؟...

وتلك الصراعات التي كانت تجري بيننا من كان يتوقع أنها ستكون أجمل الذكريات يوماً ما، عندما نمسك بشعر بعضنا البعض، ونتشارط، على من سيفلت شعر الأول لكي يفلت الثاني، والآن كبرنا وعبرت كل هذة الأيام كأسراب أيلول، ولم يبقى منها سوى لمحة تجول بين الحين والآخر بالبال، الكثير من الشخصيات كانوا أبطالاً في حياتي، كيف أضحت ذكرياتنا سجينة الماضي؟ ولما أصبحت المسافات هي عدو يفرق بيننا؟

كم أشتاق لتلك السهرات العابرة، لتلك الليالي الجميلة، أتألم اليوم وأنا أشتكي لكم عن خيالي، عن مذكراتي الصامتة، عن وجودي الغريق ببحار العمر والطفولة،«وعباس» ذلك الصديق

الذي جمعتني بة الصدف، كان لقائنا الأول صراع، والأخير كان صداقة، هي الحياة، حيث هو وجودي، طموحي، فكري العنيد، الذي حاول دائماً الهرب والتفلت من أي قوانين...

أريد أن أكون هناك، سحراً يطوف حول أشجار السنديان والرمان، أن أعيش كالخلد في تراب جنوبنا الحبيب، أن أتمرد على كل فكراً عقيم، أن أتسابق أنا ورفاقي تحت قطراة المطر المتساقطة، أن نجتمع مع الأحباب، حول مدفئة دار خالتي (ورود) في ليالي كانون العاصفة والباردة،أن أصحى في كل صباح على صوت الجارات ...

سلامٌ لك يا جدتي، سلامٌ لأروع اللحضات، سلامٌ يكللة دموع العشق والحنين، سلامٌ يختصر الساعات يخترق الأماكن والوجود وهذة الحياة، سلامٌ لحلم حملتني أياة، وها أنا ذا أعيش معه اليوم كفارسٌ جريح في ساحات النزال، طفلاً فقد أمة، عصفوراً لا يستطيع الطيران، أريد الطيران من جديد، لكن عبثاً أحاول ...

تغيب شمس وتشرق أخرى وها هي زوجة خالي «حسن»«فاطمة» تبادلني أطراف الحديث، أمرأة شريدة، طريدة عالم الخيال، أحاديثها مفعمة بالحياة، كانت كوردة جميلة تليق بحقل خالي الجميل، أما لجلسات خالي «أحمد» نكهه خاصة، فهي مزيج ما بين الثقافة الدينية والسياسية، خالي صاحب علم غزير، كم أهوى الصمت عندما يتحدث وأنا أنصت إلية بكل تمعن، رسم الزمن ملامحة، وشكلها القدر، فظهرت السيمات العربية بارزة على وجهه، رجل أنجبتة التجارب، فهو محارب من الطراز الأول، شرس بوجه الحياة، أما عن خالتي «زينب» فهي عالمٌ أخرى، يحيطة كل الحب، تربيت بقربها تعلمت منها معنى الصبر، فهي، أمرأة كما يتصور لك مظهر الفتاة الشجاعة، المتمردة، المحتسبة، صاحبة نظرة ثاقبة لكل شيء، وكان لأولادها الثلاث دوراً كبير في تأليفي ذكرياتي اليوم، ف«فريد» كان صديقي الأول، كذلك هم أولادها «حسن وحسين» أصحاب الطفولة ...

يقال أن الشخصيات الثانوية هم تلك الأفراد الذين يمرون، كعابر سبيل، أو يكونوا بمثابة طائر صغير وسط أسراب الطيور الكبيرة، لكني أقول أن الشخصيات الثانوية هي أكثر أهمية من أبطال القصة، لأنهم هم المسؤولون عن تغير مجرى أحداث القصة، هم نقطة فاصلة بين حدث وآخرى، لذلك البطولة ليست بأن تذكر كثيراً بل بأفعالك، بأعمالك، التي تترك أثراً طيباً بالقلوب قبل العقول، هكذا أخبرتني تلك التي تقطن بين الكتب، صاحبة الطموح والحلم الكبير، الغريبة، الشريدة بعوالم الخيال،هي الحالمة،وصاحبة الحلم المرهف،الذي وجدت بالكتب مكان للتمرد مثلي،هي المعلمة والمربية «فاطمة حاجة»، التي علمتني كيف أستطيع أن أحول قلمي من لا شيء إلى سلاحً فتاك،وأذكر أيضاً المعلمة «بتول»كانت أول من غذت مهاراتي بكلامها الحماسي فلقبتني «بالمخترع الصغير»،وإلى الآن لم أنس تلك التي تلمست قلمي،وكانت أول من قرأ كتباتي بعد جدتي معلمتي «غادة»،التي وجدت بي أنسان ناجح مستقبلاً وشجعتني

على هذا وها أنا ذا، ولكن هي وحدها، تلك البطلة المجهولة في دفاتر الماضي، البحارة التي تبحر بسفينتها إلى عالم الخيال، من وجهت قلمي، وكانت دائماً بقربي، تركتها للنهاية لأن إلى الآن لم أدري كيف أشكرها، التي زرعت بي ذلك الحلم الجميل الذي أنثر حصادة اليوم فوق كتابي هذا، هي أخت جدتي الخالة «أمال»، هؤلاء هم الشخصيات الذين أدوا أدوارهم بجدارة في مسرحية الذكريات ...

عدلون، آهٍ، آه، كم كان شتائك مرعب، وربيعك جميل، وخريفك قاتم وصيفك لهيب، كنتي إمراة جميلة بكل حالتها، بكل أوصافها، أخترتني لكي أكون ذلك الفارس المجهول الذي يأتي على حصان أبيض من عوالم الوهم، يحمل بيدة صمصام بطاراً يحارب بة أوجة التخلف والجهل، لكن عذراً، فأن الجهل، يا سيدتي زرعة الفلاحون بأرضك عندما زرعوا أشجار الزيتون المعمرة، والتخلف روى سنديانك الصامد، وأنهارك، تلك التي روت الأطفال بالعادات والتقاليد الرجعية، وكان للربيع أن يذهب يوماً ما، هكذا رحل من

حياتي، في اليوم الحادي عشر من الشهر الأول من سنة الألفين والتاسع عشر، رحلت جديتي مع فجرة، بعد نعيق بوم دام كل الليل، وتغير كل شيء مع رحيلها، تفكك جمع الأحباب، ورحل كلن منهم ينشد آه ليلاه، وباتت الردهة مرتع للكلاب الضالة وبعض الحيونات البرية، بعد أن هجرها الأصحاب، حتى القهوة أضحت مرة ومرة جداً برحيلك يا جدتي، قابلت حينها أناسٌ غرباء، نعم، رغم أني عشت بينهم أعلم سيماهم، تفاصيلهم، أحفظ كلماتهم وحديثهم، وردة أفعالهم، لكنهم كانوا غرباء، وصار يخرج من الأرض سوراً كبير جداً، وصل إلى حد السماء، سوراً وراء سور وكأنة يريد أبعادي عن الجميع أو خيل لي هذا، وبدا الريح وكأنة يعصف بي بشدة يلاشيني بكل قوة في حفرة النسيان، يوم، يومان، شهر، شهران، وأضحى قبر جدتي مجرد رخامة لا يزورها أحد إلى عند كل مناسبة أو مشابة، وصار التراب المنثور فوق ضريحك، يروي لي العديد والعديد من الحكايات... أعذريني فلم يكن مني سوى الرحيل...!

سوى التمرد، أن أترك خلفي كل هذة الذكريات وأرحل...

لا أريد البقاء بعد اليوم، أريد فقط أن أبحث عن نفسي أن أجدها، وحق الحق وأنقضت أول سنوات رحيلك، وها أنا ذا أحملُ حقائب الرحيل، أودع تلك الجدران، كنت أخال أن الفراق سيكون صعب، لكنة لم يكن هكذا كنت منتشي من كثرة السعادة، عندما بدأت السيارة تبتعد وتبتعد، من عدلون إلى خيزران، حيثُ صارعت موجات القدر العالية هناك، حيثُ تعلمت التمرد وعاش قلمي ينشد أول حروف الثأر، كنت على حق يا جدتي عندما قلت لي ذات يوم :

»إن لكل أنسان يوم يعلم بة سبب وجودة في هذة الحياة«

وها أنا ذا علمت اليوم سبب وجودي...

أنا هنا من أجل أن أتمرد، أن أكون نقطة فصل بين عالم الجهل والتخلف وعالم التطور، عشت حياتي وأنا أصارع وجودي، والآن أعيش من أجل أن أصارع وجود التخلف، أحرر كل من كبلتة

العادات والتقاليد، فارسٌ مغوار في ساحات النزال، بطل شجاع في صفحات القدر، من خيزران إلى بعورتا، محطة جديدة في حياتي،مشهد جديد يكمل سرد أحداث روايتي، مكان أتمرد بة بحرية أكبر، لا أدري ماذا ينتظرني هنا؟ وما كتبة لي الزمن؟

لكن كل ما أدرية اليوم، أنني أكتب آخر قصائد الذكريات المنسية، نشيد الذكرة الأبدية، وها أنا ما زلت أعيش بين ماضي يقتلني، ومستقبل مجهول يسلخ كياني، وأقف بطموحي بتمردي بخيالي بينهم حائراً :

مكبلاً بقيود الحياة ....

كاتب يشتكي ترهاتة بين السطور ...

يكتب مشاعر دفينة أصلها الوجود ...

ذكريات ألفتها في عدلون ....

نقطة إستفهام في دفاتر الحياة...

استودعتكم اللّه.